أثر الثقافة الأسلامية

فى الغـــرب

للأستاذ الكبير عبد الواحد يحيى

إن كثيرا من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الأسلامية أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية فى القرون الماضية . بل ربما لم يدركوا منهما شيئا مطلقا . وذلك لأن الحقائق التى تلقى إليهم حقائق مشوهة حظها من الصحة قليل . فأنها تبالغ كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الأسلامية والتقليل من قدر المدنية العربية ، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك .

و يلاحظ أن دراسة التاريخ فى المعاهد الغربية لا توضح هـذا التأثير بل إن الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف قصدا فى كثير من الحوادث العظيمة الشأن الجليلة الخطر .

مثال ذلك ماهو شائع معروف من أن أسبانيا ظلت تحت الحكم الأسلامى عدة قرون ، بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط ، أن صقلية والجزء الجنوبى الحالى لفرنسا كانا تحت الحكم الأسلامى أيضا ، وربمـا عزا البعض هذا الأهمال من المؤرخين إلى تعصبهم الدينى ، ولـكن ما هى حجة المؤرخين المعاصرين ـ وغالبهم لادينى ـ فى موافقتهم أسلافهم فى قلب الحقائق ؟

لهذا ينبغى أن ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم ، مما منعهم عن إدراك الحقائق الصحيحة ، ومقدار ماهم مدينون به للشرق . والأغرب من ذلك كله أنه بينما يعتبر الأوربيون أنفسهم الورثة المباشرين للمدنية اليونانية القديمة فأن الحق يدحض زعمهم هـذا . إذ أن الواقع المعروف من التاريخ نفسه ، يثبت لنا أن علوم اليونان وفلسفتهم لم تنتقل إلى الأوربيين إلا بواسطة المسلمين

وبعبارة أخرى لم تصل المخلفات العقلية لليونانيين إلى الغرب ، إلا بعد أن درسها الشرق ، ولولا علماء الأسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم زمنا طويلا . بل ربما لم يدركوها كلية

وينبغى أن نلاحظ أننا نبحث هنا عن مقدار تأثير الحضارة الأسلامية لا العربية فحسب ، كما يختلط على البعض أحيانا ، وذلك لأن معظم من حاولوا نقل هذه الثقافة الأسلامية لم يكونوا من العرب الخلص ، وإذا كانت لغتهم عربية فأن ذلك ناتج عن تأثرهم بدينهم الأسلامى . وما دمنا قد ذكرنا اللغة العربية فأننا نلاحظ دليلا واضحا يثبت لنا انتقال المؤثرات الأسلامية فى الغرب وهو تلك الكلمات العربية الأصل والمنبت التى تستعمل تقريبا فى كل اللغات الأوربية ، بل وما زالت تستعمل حتى وقتنا هذا ، على أن معظم الغربيين الذين يستعملونها يجهلون حقيقة مصدرها كل الجهل . وبما أن الكلمات هى التى تستعمل لنقل الأفكار ، وإظهار ما تكنه النفوس ، فأن من السهل علينا جدا أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الأسلامية نفسها .

وفى الحق أن تأثير الحضارة الأسلامية قد تناول لدرجة بعيدة و بشكل محسوس ، كل العلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وغير ذلك ، وقد كانت بلاد الأسبان مركز الوسط الهام الذى انتشرت منه تلك الحضارة .

وليس غرضنا الآن أن نفحص كل هذه الأنواع بالتفصيل ، ونرى مقدار ما خلفته الثقافة الأسلامية فيها ، ولكننا نركز بحثنا فى بعض نقط نعتقد أنها من الأهمية بمكان . وإن قل من يدركها فى وقتنا هذا .

أما عن العلوم فمن السهل أن نفرق بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية فأما عن الأولى فأنا نعلم علم اليقين أنها انتقلت بكلياتها وجزئياتها إلى أوربا عن طريق الحضارة الأسلامية مصبوغة بالصبغة الأسلامية تماما . فالكيمياء احتفظت دائما باسمها العربى الذى يرجع أصله إلى مصر القديمة والذى كان له معنى من أعمق المعانى التى لم يعرفها الكيمائيون الحديثون حقيقة . ولنضرب

مثلا آخر ، ذلك علم الفلك فأن أكثر اصطلاحاته الخاصة ما تزال محتفظة فى كل اللغات الأوربية بأصلها العربى كما أن كثيرا من النجوم مايزال علماء الفلك فى كل الأمم يطلقون عليها أسماءها العربية . وهذا يرجع إلى أن مؤلفات الفلكيين اليونانيين القدماء ، مثل بطليموس الأسكندرية ، كانت ، معروفة فى التراجم العربية ومجتمعة مع المؤلفات الأسلامية . ومن السهل جدا أن نوضح أن كثيرا من المعارف الجغرافية الخاصة بالمناطق السحيقة فى آسيا وأفريقيا عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيرا من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمة

أما من ناحية الاختراعات — وهى تابعة للعلوم الطبيعية — فقد انتقلت أيضا بنفس الطريق أى بواسطة المسلمين ، وما تزال قصة الساعة المائية التى أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى الأمبراطور شارلمان عالقة بالأذهان ثابتة الوقائع .

أما الرياضيات فيجب أن نعيرها التفاتا خاصا ، وذلك لأهميتها فى هذا البحث . فأن ميدانها الواسع لا نرى فيه علوم اليونان فحسب ، بل نرى فيه أكبر الأثر للثقافة الأسلامية ، مضافا إليها علوم الهند أيضا . أما اليونانيون فقد بلغوا درجة الكمال فى الهندسة ، وعلم الأرقام ، ويلاحظ أن الأخير يرتبط دائما مع الأول فى الأشكال الهندسية المناسبة ، وهذا التفوق الذى كان للهندسة يظهر لنا جليا فى الجملة التى قالها أفلاطون والتى ذكرت فى بحثنا السابق فى الجزء الأول من هذه المجلة ولكن يوجد علم آخر من الرياضيات يتبع علم الأرقام ولكنه لم يكن معروفا - كالعلوم الأخرى - فى اللغات الأوربية بالاسم اليونانى لأنه لم يكن معروفا بين اليونانيين القدماء . هذا هو علم الجبر الذى كان مصدره الأول الهند والذى يسهل علينا من اسمه العربى أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب

حقيقة أخرى حان حين ذكرها ولو أنها قليلة الأهمية ، ولكنها تدل أيضا على ماقدمنا : وهى أنه من الشائع فى كل مكان أن الأرقام التى يستعملها الأوربيون هى نفس الأرقام التى استعملها العرب ولو أن مصدرها الأول هو الهند ، لأن علامات العد التى كان العرب يستعملونها قديما ما هى إلا حروف الهجاء نفسها .

وإذا انتقلنا من بحث العلوم إلى بحث الفنون فأننا نلاحظ أن كثيرا من المعانى التى جادت بها قرائح الكتاب والشعراء المسلمين فى الأدب والشعر ، قد أخذت واستعملت فى الأدب الغربى ، بل أكثر من هذا فأن بعض كتاب الغرب وشعرائه قد قلدوا تمام التقليد بعض كتاب المسلمين وشعرائهم . وكذلك نلاحظ أن أثر الثقافة الأسلامية واضح كل الوضوح و بصفة خاصة فى فن البناء ، وذلك فى العصور الوسطى : فمن ذلك شكل القوس المعقود الذى صار متميزا بنفسه حتى صار يدل على طريقة خاصة للبناء كان يستعمل فيها وقد كان مصدره فن البناء الأسلامى ولو أن كثيرا من النظريات الخيالية اخترعت لمخالفة هذه الحقيقة ، ومما هدم هذه النظريات وجود رواية يتناقلها دائما البناءون أنفسهم وهى تثبت انتقال هذه الطريقة من الشرق . وقد كان لهـــذه الحقيقة صفة سرية جعلت لغتهم معنى رمزيا ، فكانت ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم الأرقام ، وقد نسب هذا العلم فى مصدره الأول لهؤلاء الذين بنوا هيكل سيدنا سليمان . ومهما يكن من أمر هذا المصدر البعيد فلا يمكن بحال ما ـ أن يكون انتقاله إلى أوربا إلا بواسطة العالم الأسلامى ، ومما يحسن ذكره أن هؤلاء المعماريين — وقد كانوا هيئات متحدة لها شعائر خاصة — كانوا يعتبرون أنفسهم كأنهم أجانب فى الغرب حتى فى مساقط رءوسهم . وقد ظلت هذه التسمية حتى الآن . على أن هذه الأمور صارت غير معروفة إلا للقليلين جدا .

فى هـــذه النظرة العجلى ، ينبغى أن نذكر بصفة خاصة نوعا آخر هو الفلسفة فقد بلغ التأثير الأسلامى فى القرون الوسطى مبلغا عظيما لم يستطع أشد خصوم الشرق تعصبا أن ينكر قوته . وهذا صحيح فأن أوربا لم يكن فيها من وسيلة أخرى لمعرفة الفلسفة اليونانية فى ذلك الزمن ، وذلك لأن التراجم اللاتينية لأفلاطون وأرسطو — وهى التى استعملت حينئذ — لم تنقل أو تترجم من الأصل اليونانى مباشرة بل أخذت من الترجمة العربية السالفة وأضافوا إليها ما كتبه المعاصرون المسلمون فى الفلسفة الأسلامية . ومن أولئك المعاصرين : ابن رشد وابن سينا وغيرهما

والفلسفة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت باسم « الفلسفة المدرسية » كانت تتميز بها الفلسفة الأسلامية واليهودية والمسيحية ، ولكن من الأسلامية استمد النوعان الآخران مصدرهما . بل إن اليهودية وهى التى ازدهرت فى أسبانيا كانت لغتها عربية وذلك ثابت ويرى فى المؤلفات الهامة لموسى بن ميمون وعنه نقل فيلسوف يهودى آخر — بعد قرون عديدة — كثيرا من فلسفته الخاصة ذلك هو (سپينوزا)

وليس من الضرورى أن نصر على بحث أشياء معلومة لكل من درس شيئا من تاريخ الفكر . بل يحسن أن نبحث أخيرا فى أشياء أخرى من نوع مختلف لا يعرفه معظم الحديثين ، خصوصا فى الغرب . بل لا يكاد يكون لأحد ما أية فكرة ذات أهمية عنه ، ولكن من وجهة نظرنا نرى له أهمية كبرى أكثر من كل المعارف الخارجية التى تحتويها العلوم والفلسفة . ومانقصده بهذا هو التصوف وما يتصل به أو يعتمد عليه من أنواع المعرفة الأخرى الثانوية التى تختلف عن تلك العلوم التى يدرسها الحديثون كل الاختلاف

وليس للغرب فى وقتنا هذا شىء من أمثال تلك العلوم على حقيقتها ، بل أكثر من هذا أن الغرب لا يعرف أيضا من المعارف الحقة كالتصوف أوما يماثله شيئا مطلقا . على أن هذه الحال لم تكن هى الحال فى القرون الوسطى . وهذه المعارف لها أيضا أثرها الأسلامى البين الواضح بأجلى وضوح فى تلك العصور . ومن السهل جدا ملاحظة أثر ذلك فى بعض المؤلفات التى تختلف معانيها الحقيقية عن الثمرات الأدبية كل الاختلاف

وقد بدأ هذا النوع يتضح لبعض الأوربيين أنفسهم وذلك خلال دراساتهم لأشعار « دانتى » الأيطالى ، ولكنهم لم يدركوا ماهية طبيعتها الحقة . ومنذ سنين عدة كتب المستشرق الأسبانى « دون ميجيل آسين پلائيوس » كتابا عن المؤثرات الأسلامية فى مؤلفات « دانتى » جاء فيه أن جزءا كبيرا من الرموز والأشارات التى استعملها « دانتى » كان يستعملها قبله بعض المحققين والكتاب

المسلمين وبخاصة سيدى محيى الدين بن عربى . ولكن لسوء الحظ نرى أن ملاحظاته لم تتعد التخيلات الشعرية ، على أن هناك كاتبا آخر أيطالى الجنس هو « لويجى فالليى » الذى توفى حديثا تعمق بعض التعمق فى البحث فذكر أن دانت لم يكن وحده التى استعمل الأشارات المماثلة لما كان مستعملا فى الشعر الصوفى الفارسى والعربى . بل إن كثيرا من الشعراء المعاصرين لدانتى فى مملكته كانوا أعضاء فى اتحاد أو هيئة سرية تسمى « أمناء الحب » وكان دانتى نفسه أحد رؤساء تلك الهيئة

ولما حاول « لويجى فالليى » أن يحل ألغاز لغتهم السرية لم يتمكن من إدراك ما كانت تتميز به تلك الهيئة أوما يماثلها من الهيئات التى وجدت فى أوربا أيام القرون الوسطى . على أن الحق هو أن بعض الشخصيات السرية كانت تستتر خلف تلك الهيئات لتكون مصدر إرشاد لها وقد كانت تلك الشخصيات السرية تعرف بأسماء مختلفة من أهمها تلك التسمية « إخوان الوردة والصليب » وليس لهؤلاء قواعد مكتوبة يسيرون عليها ، كذلك لم يكن لهم اجتماعات معينة وكل ما كانوا يعرفون به هو أنهم وصلوا إلى حالات روحية خاصة ويمكننا أن نصفهم بأنهم صوفيون غربيون ، أوعلى الأقل متصوفة فى درجات عالية وقد قيل إن هؤلاء « الأخوان » الذين كانوا يتسترون بألبسة البنائين ورموزهم . كانوا يعلمون الكيمياء وعلوما أخرى تماثل ماكان مزدهرا من العلوم فى العالم الأسلامى

وفى الحق أنهم كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب وكانوا على اتصال مباشر بالصوفيين المسلمين وقد كان ذلك الاتصال يستتر وراء رحلات مؤسسهم الخيالى . وليس هذا معروفا فى التاريخ الذى لا يتعمق كثيرا فى البحث ، بل يكتفى فقط بمظهر الحوادث الخارجى مع أن هناك المفتاح الحقيقى الذى يفتح لنا مغاليق كثير من الأشياء ولولاه لا ستمرت دائما غير واضحة بالمرة وسنتكلم إن شاء الله عن هذه الأشياء وعن حقيقة معناها فى أبحاث أخرى ؟

عبد الواحد يحيى